

سلوك المرأة

وسلوك الرجل

للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

أمر النساء في كل حال عجيب . وإذا كان أحد من الرجال يفهمهن — كما ينبغي أن يفهمهن — فأنا والله بهن جاهل . ولى العذر ، فإنا أراهن يفكرن في شأن على نحو ما أفكر أنا أو يتناولنه من الناحية التي أتناوله منها . وأحسب أن هذا الضرب من الجهل هو الوحيد الذي لا يبيب المرء أو يسقط قيمته أو يزدري به . قالت لي مرة فتاة من معارفنا : « ما قولك ؟ » قلت : « خير إن شاء الله ! نعم ياستى ! » قالت : « هل يشغلك شيء غدا ؟ » قلت : « إذا كنت تمنعني بالشيء العمل فإنه لا ينقطع ؛ على أن أمسى بيد الله ثم يبدى فأشيري كيف تأمرين ، والموضع على الله » قالت : « اسمع . زيد . . »

فقاطعتها : « زيد ؟ . هكذا ؟ بلفظ الجمع ؟ » قالت : « لا تقاطع من فضلك . اسمع . . . نعم أختي وبنت عمي وأنا »

قلت : « أهلاً وسهلاً . . تفضل »

قالت : « الجو في هذه الأيام بديع .. تهيجي لنا زورقاً حسناً نظيفاً مريحاً ، ركبه في النيل وتقصي به منا كله على متن الماء ، وتشتدي فيه أو في إحدى « المقامات » التي نمر بها في طريقنا » قلت : « اقتراح جميل ، ولكن .. أنا وحدي أكون ممكن ؟ وفي خدمتك ؟ أرخصني يا فتيات ! »

فقلت : « تنته طبع أن تدعو فلاناً وفلاناً »

فدعوتهما وأعددتنا الطعام ومررنا بهن فحملناهن إلى قصر النيل حيث كان الزورق ينتظر ، ولم ألق إليهن نظرة حتى نزلن من السيارة وشرعن ينحدرن إلى مكان الزورق ؛ فدهشت ، فقد كانت فيأبهن زاهية نظيفة مكوية ، بل كانت أنغر وأبرع ما رأيتهن فيه ، فختاوت ذقني يدي وقلت : « هيه . . . هارك أسود يا أبا خليل » ولم أكد أهرز رأسي هزتين حتى نادتنني إحداهن فنظرت إليها

فالعربي هو ذلك التمدن التحضر المذهب الثقف ، التعلم العالم العزيز الأبي الناطق بلسان القرآن . وليس بعرب « خراب » بادية غمرتي بطونهم^(١) ولا قرايب^(٢) في (الجزيرة) ولا مدلفون^(٣)

وأنف من أخى لأبي وأى إذا ما لم أجده من الكرام^(٤) وقد قلت من قبل : ألا إننا كلنا أجمعين عرب أو عرييون وإنه ليسحق هذا لهجة عربية ألحجنا منذ القديم بها ، وأدب عربي نجعنا به^(٥) وتروينا منه ، وخلق عربي اشتملنا عليه^(٦) . وما الأمة إلا لثها وأدبها وخلفها ، وكفى بذلك جامعاً ، وإن لنسب الواشع إلا زائدة ، ولو عزنا المازي كل أمة وقتش أصلها نشطت وراحت أمماً . . .

وهو قول لم يلاق مكذباً ، ولم يجد أحد عنه متعقبا^(٧) وإن هذه العربية أم العلم ، وربة التفكير ، وزعيمة البحث والنظر — لن تقول لمصرى من أبنائها — وهنالك في وادي النيل ماهنالك هناك التاريخ الناطق ، وهنالك مجد باسق ، فلن نقول له : طلس^(٨) طرسم ، بل نقول له : مجد وقدس ؛ إنك قد سكنت جنتين ، كنت ذا النقتين ، وكانت دارك مصدر المدنية ، وموئل العربية . جمعت العز من أطرافه : سؤدد (المصرى) ومجدالعربي^(٩)

مصر مصدر العلم والمدنية

مصر موئل العرب والعربية

مصر ! حيا الله مصر ! حيا الله ربها^(١٠)

محمد اصفاف النشائي

(١) التني ، والحارب اللس وخمه الأسمى ببارق البهران

(٢) القرضوب : اللس

(٣) الادلفانف : المجي للسرقة في ختل واستار (المخصص)

(٤) التني

(٥) سئل أبي عن النبي فقال : عليك بالماء ، عليك بالسريق الذي نجحت في غزيت به في الصفر « الأساس »

(٦) من الحجاز : عجبت من حاله واشتاله على أخلاق جبلة وسير مرضية (أساس)

(٧) متعقبا : متفحصا يعني أنه من السداد والصحة بحيث لا يحتاج إلى تعقب

(٨) طلس الكتاب : معاه وطرسه بالغ في إزالته

(٩) من مبيار

(١٠) ربها : نورها

مستفسراً فقالت : « خذ يدي فأني أخشى أن أزل وأقع على التراب أو تفرص قدمي فيه » فسألها وأنا أتناول يدها :

« أين تحسبن نفسك ؟ في سباق الخيل ؟ ما هذه الثياب التي لبستها ؟ »

قالت وهي تحني رأسها لتتأمل إلى قدميها : « ما لها ؟ ألا تعجبك ؟ »

قلت : « تعجبني وتعجبني .. ولكنها لن تعجبك بعد نصف ساعة في الزورق »

ولا أطيل . ركبني ، ووثبنا نحن ورائه من فائسنا إليهن أن يجلسن فنظرن إلى المقاعد — ولم يكن بها سوء والله — متأففات مترددات فنفضنا لهن التراب الموهوم عن الحشايا المطروحة على المقاعد . وصحیح أنها ليست وثيرة جداً ، ولا جميلة المنظر ، ولكنها نظيفة . غير أن فتياتنا تبادلن نظرات تنبي بالامتناع ولا تنبي بالرضى ، ثم انتهين بأن جلسن متلاصقات جداً محاذرات أشد الحذر ؛ وكان لابد أن أغضى عن ذلك فليس ذنبني أنهن جئن في ثياب لا تصلح إلا على الأرض اليابسة . وناولت أحد إخواني مجدافاً وأخذت أنا الآخر ، وتركنا الدفة لثالثنا ، وقام الملاح فدفع الزورق عن الشاطئ بالمردي ، ثم بدأنا نجدف . وكنت أضرب الماء برفق شديد حتى لا يطير منه شيء ، ولكن رشاشاً منه كان يصيبهن على الرغم من ذلك فيصرخن ويتلاغلطن ثم يتدائبن ويمسكن ويمسكن عن الكلام ولا تبقى لهن عين يدرنها في الناظر التي جئن لينعمن بالنظر إليها

وأخيراً قال الذي يده الدفة : « خذ أنت الدفة وأعطني المجداف » فلم أتردد في القبول فما كان يسرني أن أكون سبب التنقيص . واتخذ صاحبي مقعده وراح يضرب الماء بعنف فيتماعى الصراخ فلا يمتنى بأن يلتفت إليهن ولا يزيد على أن يقول وهو يضحك : « لا بأس ! سينشف الماء ثم يفرك الوحل فلا يبقى شيء ... » وقد حزن ماذا يصنعن لا تقاء هذا المطر . وكنت ربما ضحكت إذ أراهن يخرجن مناديل في سعة الكف وينثرنها على حجورهن كأنما من الممكن أن تستر شيئاً .

وأخيراً بلغنا مكاناً دنونا من شاطئه ، وقال الملاح : إن الأحسن أن يجر الزورق بالحبل . وقام فأخرج جبلاً طويلاً شده إلى الزورق

ووثب إلى الشاطئ وراح يجري ، وقعد أحداً عند الدفة ليضبط الزورق فلا يجنح أو يلصق بالأرض . فعاد إلى الفتيات البشر وانطلقت ألسنتهن وإن كن لم ينسبن موجدهن علينا لما أصابهن من البلل . ثم تهامسن ونهضن وجملن يصحن بالملاح وهو بعيد لا يسمع ونحن نسألن ماذا ينعن وهن لا يباليننا أو يجبننا . وسمع الملاح فوقف وارتد البنا ، وإذا بهن يردن أن يتولين من جر الحبل أو « اللبان » كما يسميه النواتية . فنصحنا لهن ألا يفعلن وحذرناهن وأندرنهن فأين إلا أن يفعلن ، وفي ظنهن أن هذا أسلم لثيابهن . وأشرح لصدورهن وأجلى للصدأ وأجلب للصحة أيضاً ، فتركناهن يفعلن وأدبنا لهن الزورق من الشاطئ وحملناهن واحدة واحدة إلى الأرض . فذهبن يجريين إلى أول الحبل حيث تركه الملاح ودفعن نحن السفينة إلى الماء مرة أخرى وكنا نراهن فاذا باثنتين منهن يتناولان الحبل معاً وكانت الثالثة تدور حولهما ولا تصنع شيئاً فر تكون أمامهما ونارة تكون خلفهما وهكذا ، فانتعياً الأمر بأن التذ الحبل على سيقانهن جميعاً فصرخن ووقفن يحاولن تخليص أرجلهن مما أحاط بها فخلصت أرجلهن ولكن الحبل صار على صدورهن وأعناقهن ، والزورق يضطرب بنا ونحن نحاول أن نضبطه بالمجداف واستطعن أخيراً وبعد لآي وصراخ قطيع أن يتجنبن ش أنفسهن ، فهامسنا بأن الأولى بنا أن تسكت وتدعي الجهل بحدث وأن ننظر ماذا يصنعن بعد ذلك . ويظهر لهنن نحن أن يقن شيئاً فعدن إلى الحبل واستأنفن جره فعدنا ولكنهن كن يمشين شيئاً ، ثم يقفن فجأة وعلى غير انتظار م فيضطرب بنا الزورق فناديهن ، فلما تنهين إلى أننا نريد نكلمهن وقفن وأقبلت علينا واحدة منهن وقتت بعيداً وأشار إلينا تسألنا عما نريد ، فصحت بأعلى صوتي : « لا تقفن » فف ويدها على أذنها : « إيه ؟ » فقلت لصاحبي : « صوتكما أة فكلماها وأفهماها أن الوقوف يضايقنا ويتعبنا ، ففعلنا . فلما ع ما نريد بدأت تسألنا هل نحن مسرورون ، وهل هن يحسن الحبل ؟ فأثبتنا على براعتن ، واستدحتنا حذقهن ، وأكدنا لم الدولة حين تحتاج إلى رابطة ونواتية للأسطول فانهن سيكون الرشحات أو خير أسانذة المدرسة البحرية . وكنا نرجو

٢ - مصر

في أواخر القرن الثامن عشر

كما يصورها الرحالة سافاري

للأستاذ محمد عبد الله عنان



أشرف سافاري على القاهرة بعد رحلة ممتعة في النيل ، فلم ترقه العاصمة ولم تنهره مناظرها كما بهرتة مناظر الإسكندرية ؛ ذلك أن القاهرة التي كانت خلال العصور الوسطى أعظم مدن الاسلام ، انتهت في أواخر القرن الثاني عشر إلى مدينة متواضعة تحيط بها التلال والخرائب ويصف لنا سافاري خطط العاصمة المصرية يومئذ ، وضيق شوارعها وأزقتها ؛ ولكن القاهرة كانت مع ذلك تلفت النظر بمساجدها الثلاثية وقلعتها التاريخية المنيفة ، ويقدم لنا سافاري عن القلعة وعن أبنيتها وسكانها صورة شائقة ، فيقول لنا إنها فقدت مناعتها القديمة منذ اختراع الديناميت ، وإن لها مدخلين تحرسهما ثلة من الانكشارية وستة مدافع مصوبة نحو مسكن « الباشا » ذلك أن الانكشارية يملئون البيكوات المصريين ، والبيكوات هم الذين يملون إرادتهم على الباشا ، وفي داخل القلعة قصر سلاطين مصر السالفين ، قد غلب عليه الغناء والخراب ، ولكن بقيت منه عدة أعمدة ضخمة وجدران زاهية ؛ وفي أحد أبنائها المهجورة تصنع الكسوة النبوية التي يحملها أمير الحج كل عام . ويسكن الباشا بناء كبيراً يطل على « قره ميدان » ، ويمتد الباشا الديوان ثلاث مرات في الأسبوع في غرفة الديوان الشاسعة ، وقد خضبت دماء البيكوات المصريين الذين فتك بهم الباب العالي قبل ذلك بأعوام قلائل . أما اليوم فهم سادة مصر ، وليس لممثل السلطان أية سلطة فعلية ، وإنما هو أداة في أيديهم يجركونه طبق أهوائهم ، بل هو سجين في القلعة لا يستطيع أن ينادرها دون إذنهم . أما الانكشارية فيسكنون في قصر صلاح الدين وقد بقيت منه أطلال تدل على عظمتها السابقة ، وأربعون عموداً من الجرانيت الأحمر ؛ وإلى جانبه توجد منظره عالية تشرف على القاهرة ، يرى منها منظر المدينة الرائع بميادينها ومآذنها وحدائقها

تعود إلى زميلتها فيستأنفن جر « اللبان » ولكنها تذكرت أن بها حاجة إلى متدبل مما في حقيقتها فأخرجناه لها وحملناه إليها فذهبت به وإذا بثانية تعود وتصيح بنا أنها هي أيضاً تحتاج إلى متدبل فتناولناها إياه ، وبدا لها أن الثالثة قد تطلب متدبلها فيحسن أن تأخذ لها على سبيل الاحتياط ، فأجبناهما إلى ماطلبت ، فذهبت ثم عادت وقالت إن الثالثة لا تريد المتدبل فهي ترده لنضعه حيث كان فأطعنا ومضت ، وبعد دقائق أخرى عادت الثالثة تقول : إنها رأت أن الأحسن على كل حال أن تأخذ المتدبل ، فدعونا الله أن يعيننا على الصبر وأعطيناهما المتدبل فذهبت وأوعزنا إلى الملاح أن يلحق بها وأن يتولى هو الجبل ولا يدع للفتيات إلا المظهر

ولما جاء وقت الطعام تخبرنا رقعة من الأرض خضراء ظليلة رتأهنا للجلوس فنظرت الفتيات إلى الأرض مشغقات من البلب كأنما في ما يخشين على ثيابهن التي خططها الجبل بالوحل فنشرنا من متادبلنا فان منادياهن لا تصلح لشيء إلا للزينة . فجلسن عليها الرماح استقامة ، وكنا نشعر أنهن غير مرتاحات وأن الجلسة تعب لهن ، وأن خوفهن البلب ينقص عليهن ولكن ماذا كان معنا أن نصنع ؟ ولو كان يسعنا أن ننقل لهن بعض أثاث البيت من سجاجيد وحشايا ومكآآت وما إلى ذلك لفعلنا . ولكننا لم كن نعلم أنهن سيرتدين هذه الثياب التي تصلح للعرض ولا تصلح حلة على النيل .

وانحدرت الشمس قبل أن تعود إلى قصر النيل فكدن ييكنين نهن تأخرن وكن على موعد مع الخطيطة ، فعجبنا لا تمادهن ما في يوم يخرجن فيه لمثل هذه الرحلة التي طلبنها وأردن أن نفرق النهار كله ... ولكن المرأة هكذا أبدأ ... تكون لها عين الجنة وعين في النار . ولست ألومها أو أعيبها فإنها طبيعتها التي حيلة لها فيها ، ولكني أرجو ألا ألام - وأن أعذر - إذا بنت أشعر بالحيرة والعجز في كثير من الأحيان عن الفهم صحيح والتقدير المرضي المريح ؛ وأحسب أن الرجال جميعاً مثل مله مساكين . ولا شك أن المرأة يحيرها كذلك مالا تفهم من أع الرجل وسلوكه ، فالعجب بعد ذلك أن الجنسين يستطيعان يقنما أنفسهما بأنهما متفاهمان ، وأن كل شيء بينهما على ما يرام

ابراهيم عبد القادر المازني